

تفسير ابن كثير

* إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِنْ ثُلُثِي اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ وَطَائِفَةٌ مِّنَ الَّذِينَ مَعَكَ^ج
وَاللَّهُ يَقْدِرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ عِلْمَ أَنْ لَنْ تُحْصِيَهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ^ج فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ^ج
عِلْمَ أَنْ سَيَكُونُ مِنْكُمْ مَّرْضَىٰ^ل وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ^ل
وَآخَرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ^ط فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ^ج وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ
وَاقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا^ج وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرًا
وَأَعْظَمَ أَجْرًا^ج وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ^ط إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ

ثم قال : (إن ربك يعلم أنك تقوم أدنى من ثلثي الليل ونصفه وثلثه وطائفة من الذين معك
(أي : تارة هكذا ، وتارة هكذا ، وذلك كله من غير قصد منكم ، ولكن لا تقدرون على
المواظبة على ما أمركم به من قيام الليل ؛ لأنه يشق عليكم ؛ ولهذا قال :) والله يقدر
الليل والنهار) أي : تارة يعتدلان ، وتارة يأخذ هذا من هذا ، أو هذا من هذا . (علم أن
لن تحصوه) أي : الفرض الذي أوجبه عليكم (فاقراءوا ما تيسر من القرآن) أي : من
غير تحديد بوقت ، أي : ولكن قوموا من الليل ما تيسر . وعبر عن الصلاة بالقراءة ، كما

قال في سورة سبحان : (ولا تجهر بصلاتك) أي : بقراءتك ، (ولا تخافت بها) وقد استدل أصحاب الإمام أبي حنيفة رحمه الله ، بهذه الآية ، وهي قوله : (فاقرءوا ما تيسر من القرآن) على أنه لا يتعين قراءة الفاتحة في الصلاة ، بل لو قرأ بها أو غيرها من القرآن ، ولو بآية ، أجزاءه ؛ واعتضدوا بحديث المسيء صلواته الذي في الصحيحين : " ثم اقرأ ما تيسر معك من القرآن " . وقد أجابهم الجمهور بحديث عبادة بن الصامت وهو في الصحيحين أيضا : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " لا صلاة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب " وفي صحيح مسلم ، عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " كل صلاة لا يقرأ فيها بأم الكتاب فهي خداج ، فهي خداج ، فهي خداج ، غير تمام " . وفي صحيح ابن خزيمة ، عن أبي هريرة مرفوعا : " لا تجزئ صلاة من لم يقرأ بأم القرآن " . وقوله : (علم أن سيكون منكم مرضى وآخرون يضربون في الأرض يبتغون من فضل الله وآخرون يقاتلون في سبيل الله) أي : علم أن سيكون من هذه الأمة ذوو أعدار في ترك قيام الليل ، من مرضى لا يستطيعون ذلك ، ومسافرين في الأرض يبتغون من فضل الله في المكاسب والمتاجر ، وآخرين مشغولين بما هو الأهم في حقهم من الغزو في سبيل

الله ، وهذه الآية - بل السورة كلها - مكية ، ولم يكن القتال شرع بعد ، فهي من أكبر دلائل النبوة ، لأنه من باب الإخبار بالمغيبات المستقبلية ؛ ولهذا قال : (فاقروا ما تيسر منه) أي : قوموا بما تيسر عليكم منه . قال ابن جرير : حدثنا يعقوب ، حدثنا ابن علي عن أبي رجاء محمد ، قال : قلت للحسن : يا أبا سعيد ، ما تقول في رجل قد استظهر القرآن كله عن ظهر قلبه ، ولا يقوم به ، إنما يصلي المكتوبة ؟ قال : يتوسد القرآن ، لعن الله ذاك ، قال الله تعالى للعبد الصالح : (وإنه لذو علم لما علمناه) [يوسف : 68] (وعلمتم ما لم تعلموا أنتم ولا آباؤكم [الأنعام : 91]) قلت : يا أبا سعيد ، قال الله : (فاقروا ما تيسر من القرآن) ؟ قال : نعم ، ولو خمس آيات . وهذا ظاهر من مذهب الحسن البصري : أنه كان يرى حقا واجبا على حملة القرآن أن يقوموا ولو بشيء منه في الليل ؛ ولهذا جاء في الحديث : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سئل عن رجل نام حتى أصبح ، فقال : " ذاك رجل بال الشيطان في أذنه " . فقيل معناه : نام عن المكتوبة . وقيل : عن قيام الليل . وفي السنن : " أوتروا يا أهل القرآن " . وفي الحديث الآخر : " من لم يوتر فليس منا " . وأغرب من هذا ما حكى عن أبي بكر عبد العزيز من الحنابلة ، من إيجابه قيام شهر

رمضان ، فالله أعلم .وقال الطبراني : حدثنا أحمد بن سعيد بن فرقد الجدي ، حدثنا أبو [حمة] محمد بن يوسف الزبيدي ، حدثنا عبد الرحمن [عن محمد بن عبد الله] بن طاوس - من ولد طاوس - عن أبيه ، عن طاوس ، عن ابن عباس ، عن النبي صلى الله عليه وسلم : (فاقراءوا ما تيسر منه) قال : " مائة آية " .وهذا حديث غريب جدا لم أره إلا في معجم الطبراني ، رحمه الله .وقوله : (وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة) أي : أقيموا صلاتكم الواجبة عليكم ، وآتوا الزكاة المفروضة . وهذا يدل لمن قال : إن فرض الزكاة نزل بمكة ، لكن مقادير النصب والمخرج لم تبين إلا بالمدينة . والله أعلم .وقد قال ابن عباس ، وعكرمة ، ومجاهد ، والحسن ، وقتادة ، وغير واحد من السلف : إن هذه الآية نسخت الذي كان الله قد أوجبه على المسلمين أولا من قيام الليل ، واختلفوا في المدة التي بينهما على أقوال كما تقدم . وقد ثبت في الصحيحين أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لذلك الرجل : " خمس صلوات في اليوم والليلة " . قال : هل علي غيرها ؟ قال : " لا ، إلا أن تطوع " .وقوله تعالى : (وأقرضوا الله قرضا حسنا) يعني : من الصدقات ، فإن الله يجازي على ذلك أحسن الجزاء وأوفره ، كما قال : (من ذا الذي يقرض الله

قرضا حسنا فيضاعفه له أضعافا كثيرة) [البقرة : 245] .وقوله : (وما تقدموا لأنفسكم
من خير تجدوه عند الله هو خيرا وأعظم أجرا) أي : جميع ما تقدموه بين أيديكم فهو [
خير] لكم حاصل ، وهو خير مما أبقيتموه لأنفسكم في الدنيا .وقال الحافظ أبو يعلى
الموصلي : حدثنا أبو خيثمة ، حدثنا جرير ، عن الأعمش ، عن إبراهيم ، عن الحارث
بن سويد قال : قال عبد الله : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " أيكم ماله أحب
إليه من مال وارثه؟ " . قالوا : يا رسول الله ، ما منا من أحد إلا ماله أحب إليه من مال
وارثه . قال : " اعلمو ما تقولون " . قالوا : ما نعلم إلا ذلك يا رسول الله ؟ قال : " إنما مال
أحدكم ما قدم ومال وارثه ما آخر " .ورواه البخاري من حديث حفص بن غياث
والنسائي من حديث أبي معاوية ، كلاهما عن الأعمش به .ثم قال تعالى : (واستغفروا
الله إن الله غفور رحيم) أي : أكثروا من ذكره واستغفاره في أموركم كلها ; فإنه
غفور رحيم لمن استغفره .آخر تفسير سورة " المزمّل " والله الحمد .